المحاضرة السادسة: مظاهرات 8 ماي 1945

كان للدعاية التي ألقاها الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية عن أهداف الحرب المتمثلة في تصفية الاستعمار كان لها صداها عند الجزائريين، اضافة إلى الاجتماع التأسيسي للجامعة العربية، والتحضير لمؤتمر سان فرنسيسكو للأمم المتحدة ، ووعود الجنرال "ديغول" بمنح الحكم الذاتي للمستعمرات الفرنسية بعد الحرب. غير أن هذه الوعود تبيت أنها كانت عبارة عن تهدئة للشعوب المستعمرة لكي لا تحدث مشاكل للوجود الاستعماري في أراضيها، وهذا ما زاد الحركة الوطنية تصلبا في مواقفها وإصرارا على المطابة بالاستقلال، باسم حركة أحباب البيان، وظهر ذلك في مطالب مؤتمر الحركة المنعقد في الفترة ما بين 2 و4 مارس 1945.[1]

في هذا الوقت الذي كانت فيه حركة أحباب البيان تتقوى وتنتشر كما يقول "فرحات عباس" كان المعمرون يحيكون لها المؤامرات في الخفاء، وكانوا يدبرون في الليل إثارة الاستفزازات التي تمكنهم من الإجهاز على حركتنا.[2]

من جهتها؛ السلطات الفرنسية سارعت في 18 أفريل 1945 إلي اعتقال "مصالي الحاج" بعد أن أطلقت سراحه من السجن، ووضعته بمعتقل (بوغاري)، مما تسبب في مظاهرات وطنية منادية بإطلاق سراحه وبحرية الجزائر واستقلالها، وتحت ضغط الاحتجاجات واستمرار المظاهرات رُحِلَ إلى معتقل (الشلالة)، ثم نقل إلى (القليعة) بالجنوب الصحراء، ومنها نفي إلى برزافيل بالكونغو في 23 أفريل 1945، وذلك ليكون بعيدا كما كان يجري في الجزائر من مظاهرات.[3]

قابلت سلطات الاحتلال تلك المطالب والاحتجاجات ولم تولي لها اهتمام مما أدى مناضلي الحركة الوطنية إلى التخطيط إلى كيفية اسماع صوتهم للمستعمر، وارغامه على الاعتراف بمطالبهم، فتم الاتفاق على القيام بمظاهرات سلمية. وعند حلول فاتح ماي 1945 بدأت المظاهرات التي نظمها حزب الشعب الجزائري الذي كان ينشط في السرية بعد حله، وهي المظاهرات التي صادفت سقوط مدينة برلين عاصمة ألمانيا في يد الحلفاء، الأمر الذي أعطى المظاهرة طابعا خاصا حمل المتظاهرون لافتات تندد بالاستعمار، وتنادي بحرية الجزائر وتقرير المصير والاستقلال، وسقوط قرار 8 مارس 1944، وإطلاق سراح المساجين السياسيين، وبحياة الجزائر مستقلة، وهي المظاهرات شملت العديد من المدن والقرى الجزائرية وأسفرت عن العديد من القتلى والجرحى بالإضافة إلى اعتقال بضع عشرات.[4]

وفي اليوم الثامن ماي بالخصوص قرر قادة الحركة الوطنية القيام بمظاهرات شعبية في مختلف المدن الجزائرية احتفالا بانتصار دول الحلفاء على المحور، واستغلال أيضا اليوم المصادف يوم عيد الطبقة الشغيلة، للمطالبة بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره. فكيف كان أمر هذه المظاهرات؟.

في سطيف طالب الجزائريون الترخيص لهم بمسيرة إلى قبر الجندي المجهول يوم 8 ماي، وكانت هي موطن فرحات عباس ومقر عمله ونشاط حزبه، وتذهب الروايات أن الرخصة قد منحت لهم بشرط عدم رفع العلم الجزائري وعدم الهتاف بحياة مصالي والاستقلال ولكن من يضمن تكميم الأفواه.

تجمع عدة آلاف في المكان والزمان المتفق عليهما بسطيف واصطفت الصفوف استعداد للمسيرة، ثم اعطيت الأوامر بالتقدم نحو نصب الجندي المجهول. وعند الخطوات الأولى نشر شاب العلم الجزائري الذي كان مطويا عنده وتقدم به الصفوف، ثم سمعت هتافات مختلطة فيها حياة مصالي وحياة الجزائر المستقلة. فجأة أصابت رصاصة قلب الشاب (بوزيد شعال) حامل العلم، فسقط صريعا، فحما آخر العلم ورفعه عاليا، واعترى المظاهرة اضطراب، البعض تفرقوا بصيحات مختلفة، والبعض ساروا من طرق عديدة حتى وصلوا نصب الجندي المجهول، وضعوا إكليلا من الزهور. ومن الذين تفرقوا هنا وهناك حدثت مصادمات بينهم وبين الشرطة والمدنيين الأوروبيين، وانتشرت الأخبار كالنار في الهشيم في القرى المجاورة، وامتدت إلى قالمة وخراطة وغيرهما. وتحركت المليشيات الأوروبية والشرطة والجيش بجميع آلياته لسحق الثورة. ومن الملاحظ أن وزير الطيران الفرنسي عندئذ وهو (شارل تيون) كان من الحزب الشيوعي، وقد ضرب الجزائريين بطائرات فرنسية وأمريكية وبريطانية فيها المقنبلة والمطاردة. كما ضربت السفن الفرنسية سواحل بجاية وما اقترب منها. وساد التعتيم الإعلامي فلم ينتشر خبر المجزرة إلا بعد حوالي شهر. وعندما تسربت أخبارها كانت المفاجأة المهولة، فالضحايا كانوا بعدد ضخم، فقد قدرهم البعض بألف وخمسمائة (وزير الداخلية)، وحددهم آخرون ب 18 ألف (جريدة الجيش الأمريكي)، ومنهم من ذكر 80 آلفا، ولكن الشائع بين الكتاب اليوم هو أن العدد لا يقل عن 45 ألف نسمة، بينما قدر عدد الضحايا بعضهم عشرات فقط.[5]

ساد الجزائر سكون بعد 8 ماي 1945، كسكون المقابر، فقد نصبت المحاكم، وأعلنت حالة الطواري، وفتحت السجون، وقيد "فرحات عباس" الذي صادف أن كان يوم الحادثة في العاصمة لتهنئة الحاكم العام بانتصار الديمقراطية وتحرير فرنسا، قيد إلى سجن الكدية بقسنطينة، كما قيد إليه "البشير الإبراهيمي" بعد حبس انفرادي مضيق، ونقل" مصالي" إلى المنيعة في الصحراء، ثم إلى الكونغو (برازفيل بوسط افريقيا) . كما عرفنا . ومنعت السلطات صدور الجرائد والتحركات السياسية، فكان ذلك هو جزاء فرنسا للجزائريين على تضحياتهم من أجل تحريرها، ولعله لولا تدخل الولايات المتحدة الأمريكية والجامعة العربية لا ستمر العقاب والإرهاب ضد الجزائريين بدون حدود. فقد ثبت أن سفير أمريكا من باريس تدخل بإلحاح من الجامعة العربية لدى جورج بيدو، وزير الخارجية الفرنسي، بأن مبالغة فرنسا في عقاب الجزائريين قد تؤدي إلى غضب الرأي العام العربي وضياع مصالح فرنسا في الشرق وفتح شمال إفريقيا أمام خطر الشيوعية. وظنا من المسؤولين الفرنسين أن الجزائريين كانوا جياعا أمرت سفينة في عرض المحيط تحمل الدقيق الأمريكي إلى فرنسا بالتوجه مباشرة إلى الجزائر.[6]

إن حوادث ماي 1945 جعلت الشعب الجزائري يبقى مجندا في سبيل انتصار مطامحه الوطنية، كما انطلقت الحركة الوطنية على أسس جديدة، على العكس ماكان يتوقعه المستعمر، بأنه بتلك المجازر قضى على الحركة الوطنية، وكانت تلك الأحداث بداية النهاية للوجود الاستعماري في الجزائر، ومنطلقا لتحضير ثورة أول نوفمبر 1954. كما تعد الثامن ماي الحد الفاصل بين ما كان يراود بعض الجزائريين في الحركة الوطنية، من أمل في نيل الاستقلال يطرق الكفاح السياسي والدبلوماسي، وبين البعض الذين أمنوا بأن أسلوب الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد للاستقلال.

ومن جهتها أيضا؛ فإن القوات الاستعمارية منذ أحداث الثامن ماي 1945 تكالبت من جديد على الشعب الجزائري، فراحت تضرم النار في القرى والمداشر، وتشدد الحراسة والملاحقة على المواطنين، فكثر الظلم والاعتداء على الأنفس والأملاك والأعراض مما جعل مفهوم الثورة يتبلور في أذهان الكثير من المناضلين.[7]

[1] يوسف مناصرية، ((القمع الدموي في 8 مايو 1945 ونتائجه السياسية والاجتماعية))، الذكرة، مجلة الدراسات التاريخية والمقاومة، يصدرها المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، السنة الثانية، ع:2، ربيع 1995 الموافق لـ 1415 هـ، ص: 46.

[2] فرحات عباس، مصدر سابق، ص: 124.

[3] نصر الدين سعيدوني، ((أحداث 8 ماي 1945، ذكريات تضحيات جسيمة وعبرة كفاح مرير))، الذكرة، مرجع سابق، ص: 20.

[4] يوسف مناصرية، ((القمع الدموي ...))، مرجع سابق، ص: 47.

[5] أبو القاسم سعد الله، خلاصة، مرجع سابق، ص:136.

[6] أبو القاسم سعد الله، خلاصة، مرجع سابق، ص:137.

[7] يوسف مناصرية، ((القمع الدموي ...))، مرجع سابق، ص: 50.